السفارات السياسية بين دولة المماليك ومغول فارس زمن السلطان قلاوون في كتاب تشريف الايام والعصور لابن عبد الظاهر (ت ٦٩٢هـ)

Diplomatic Missions Between the Mamluk Sultanate and the Persian Mongols During the Reign of Sultan Qalawun: A Study Based on Ibn ʿAbd al-Ẓāhir's Tashrīf al-Ayyām wa al-ʿUṣūr (d. 692 AH / 1293 CE)

م.د. ساهرة عواد عبد علي

Dr. Sahira Awwad Abd Ali

قسم التاريخ/ كلية التربية للعلوم الإنسانية/ جامعة ديـــــــالى

sahira.hs.hum@uodiyala.edu.iq

الكلمـات المفتاحيـة: الدولـة الإيلخانيـة، دولـة المماليـك، أحمـد تكـودار، المنصـور قلاوون، السفارات السياسية.

Keywords: Ilkhanid State, Mamluk Sultanate, Ahmad Tegüder, al-Mansur Qalawun, Diplomatic Missions.

المستخلص:

يدرس هذا البحث العلاقات السياسية والعسكرية بين الدولة الإيلخانية ودولة المماليك في عهد السلطان أحمد تكودار، مع التركيز على محاولاته الدبلوماسية لإقامة الصلح مع السلطان المنصور قلاوون بعد اعتناقه الإسلام؛ إذ شكّل إسلام تكودار تحولاً مهمًا في سياسة مغول فارس، إذ حاول التقرب من المسلمين وإزالة آثار العداء التي خلفتها الحملات المغولية السابقة، لاسيما ما ارتبط بسقوط بغداد وما رافقه من تخريب وقتل.

تكمن مشكلة البحث في تتبع أثر التحول الديني لحاكم مغول فارس على العقلية السياسية المملوكية الحذرة تجاه النوايا الإيلخانية .

اعتمدت الدراسة على المنهج التاريخي التحليلي لتفكيك أحداث سفارتين بعثهما تكودار إلى دولة المماليك، الأولى سنة 681هـ/1282م، والثانية سنة 682هـ/1283م، بهدف إظهار حسن النية ووقف الحروب بين الطرفين؛ إذ بيّن البحث كيف تعامل السلطان المنصور قلاوون مع تلك السفارات بحذر شديد خوفاً من محاولة التأثير في قادة الدولة المملوكية، وتوصل البحث إلى أن تلك المحاولات انتهت بالفشل بعد مقتل تكودار وتولي أرغون الحكم وبذلك بطل الأساس السياسي الذي قامت عليه مبادرات الصلح، ويخلص البحث إلى أن إسلام تكودار أحدث تحولاً واضحاً في طبيعة العلاقات بين الطرفين، لكنه لم يكن كافياً لتحقيق سلام دائم بسبب الصراعات الداخلية وعدم استقرار الحكم الإيلخاني.

Abstract

This study examines the political and military relations between the Ilkhanid State and the Mamluk Sultanate during the reign of Sultan Ahmad Tegüder, with particular emphasis on his diplomatic efforts to establish peace with Sultan al-Mansur Qalawun following his conversion to Islam. Tegüder's conversion represented a significant turning point in Ilkhanid policy, as he sought to strengthen ties with the Muslim world and to alleviate the legacy of hostility resulting from earlier Mongol campaigns, particularly those associated with the fall of Baghdad and the widespread destruction and loss of life that accompanied it.

The research problem centers on examining the impact of the religious transformation of the Ilkhanid ruler on the cautious political outlook adopted by the Mamluk leadership toward Ilkhanid intentions.

The study employs the historical-analytical method to investigate the two diplomatic missions dispatched by Tegüder to the Mamluk Sultanate: the first in 681 AH/1282 CE and the second in 682 AH/1283 CE. These missions were intended to demonstrate goodwill and bring an end to the prolonged conflict between the two states. The study demonstrates that Sultan al-Mansur Qalawun dealt with these diplomatic initiatives with considerable caution, fearing that they might serve as a means of influencing senior figures within the Mamluk state. The findings reveal that these efforts ultimately failed following Tegüder's death and the accession of Arghun to power, thereby removing the political foundation upon which the peace initiatives had been based.

The study concludes that Tegüder's conversion to Islam brought about a noticeable transformation in the nature of relations between the Ilkhanids and the Mamluks. Nevertheless, this development was insufficient to establish lasting peace due to internal political conflicts and the instability of Ilkhanid rule.

المقدمـــة

بلغت الاضطرابات نتيجة الهجمات المغولية ذروتها في المشرق العربي بسقوط بغداد سنة 656هـ/1258م، وترك ذلك الحدث شرخًا كبيرًا في العلاقات السياسية والعسكرية بين القوى الإسلامية والمغول، ولاسيما دولة المماليك والدولة الإيلخانية (مغول فارس)، ومع اعتناق السلطان أحمد تكودار الإسلام تغيرت سياسة الدولة الإيلخانية تجاه المسلمين؛ إذ سعى إلى إنهاء العداء والحروب بين الطرفين وتجسد ذلك في إرسال عدد من السفارات إلى السلطان المنصور قلاوون بهدف عقد الصلح وإقامة علاقات ودية.

تبرز أهمية هذا البحث في أنه لا يدرس تلك السفارات من منظور تاريخي عام بل يدرسها من عيون مؤرخ عاصر الأحداث وكان قريبًا من ديوان الإنشاء

المملوكي، وهو ابن عبد الظاهر (ت692هـ) في كتابه "تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور".

تكمن مشكلة الدراسة في استجلاء مدى دقة وموضوعية الرواية التاريخية التي قدّمها ابن عبد الظاهر، وتحليل طبيعة التناول المملوكي الرسمي للسفارات الإيلخانية وأسباب فشلها في النهاية، ولتحقيق أهداف البحث اعتمدت الدراسة على المنهج التاريخي التحليلي القائم على نقد النصوص والمصادر، وتفكيك الروايات التاريخية ومقارنتها.

تم تقسيم البحث إلى مبحثين رئيسين؛ تناول المبحث الأول: دراسة شخصية المؤرخ عبر استعراض ولادته، ونشأته، وتعليمه، وأبرز مؤلفاته العلمية، في حين ركّز المبحث الثاني: على صلب الدراسة المتمثل في تحليل السفارات السياسية المتبادلة بين دولة المماليك ومغول فارس في زمن السلطان قلاوون اعتمادًا على ما أورده ابن عبد الظاهر في كتابه.

(المبحـث الأول)

أولاً: اسمهُ ونسبه: أبو الفضل محي الدين عبد الله بن رشيد الدين أبي محمد عبد الظاهر بن نشوان بن عبد الظاهر بن علي بن نجده السروجي السعدي الجذامي.

ثانيًا: مولده: ولد بن عبد الظاهر في القاهرة سنة ٦٢٠هـ/١٢٢٣م (ابن الفرات، 1939، مج8، ص162؛ العيني، 2010، ج3، ص196).

ثالثًا: نشأته: نشأ بن عبد الظاهر في بيت ذا شأن علمي كبير وجاه، إذ شغل معظم افراده بالقضاء وتولى كثير منهم دواوين الانشاء مما ساهم ذلك في صقل شخصيته العلمية والثقافية، وحفظ القرآن الكريم مبكرًا على يد والده الذي كان قاضيًا ومقرئًا في الديار المصرية، اتجه بعد ذلك نحو علوم اللغة العربية والبلاغة والنحو والعروض وعلوم الحديث والفقه (ابن كثير، 2015، ج15، ص572؛ العيني، 2010، ج3، ص196).

بدأ محي الدين بن عبد الظاهر حياته العملية كاتبًا في ديوان الانشاء[1]، عند تولي الظاهر بيبرس[2]، الحكم وتألق نجمه منذ تلك اللحظة، استمر في تلك الوظيفة في عهد السلطان المنصور قلاوون[3]، وأبنه الاشرف خليل[4]، وكانت تصدر عنه العهود والسجلات والمنشورات والتوقيعات والرسائل البليغة والبيانات حتى صار شيخ أهل الترسل في عصره، وضمن عبد الظاهر مؤلفاته التاريخية عددًا كبيرًا من الوثائق التي كتبها إلى أن أصبح واحدًا من أشهر كتاب عصره، وكان ابنه فتح الدين محمد (ت٦٩١هه/١٢٩١م) على غراره فهو صاحب ديوان الانشاء الذي يعد اول من سمي بكاتب السر، ومَهَرَ في الإنشاء وسادَ فيه حتى تقدم على والده (شوقي ضيف،1990، ص415-416).

رابعًا: وفاته: توفي محي الدين بن عبد الظاهر سنة ٦٩٢هه/١٢٩٣م بعد أن تجاوز السبعين من عمره (ابن الفرات، 1939، مج8، ص162؛ الكتبي، 1973، مج8، ص179) سجل فيها معظم الأحداث التي كان شاهدًا عليها ودفن بتربته التي انشأها في القرافة الصغرى (العيني، 2010، ج3، ص196).

خامسًا: شيوخه: تتلمذ محي الدين بن عبد الظاهر على يد نخبة من العلماء والفقهاء منهم (الكتبي، 1973، مج2، ص179):

١ – جعفر بن علي بن هبة الله بن يحيى أبو الفضل الهمداني (ت٦٣٦هـ/١٢٣٨م).

٢ – علي بن الحسين بن علي أبو الحسن ابن المقير النجار (ت٦٤٣هـ/١٢٣٨م).

٣ – أبو المنى أبو المظفر بن فتيان النهرواني (ت٦٤٩هـ/١٢٥١م).

سادسًا: تلاميذه: تتلمذ العديد من طلاب العلم على يديه منهم (الكتبي، 1973، مج2، ص179):

١ – فتح الدين بن سيد الناس (ت٧٣٤هـ/١٣٣٣م).

٢ – البرزالي (ت٧٣٩هـ/١٣٣٨م).

٣ – أثير الدين، ابن حيان الغرناطي، الحياني (ت٧٤٥هـ/١٣٤٤م).

سابعًا: مؤلفاته (ابن عبد الظاهر،1961، ص14-15): خلف بن عبد الظاهر عددًا من المؤلفات التي تعد من المصادر المهمة في دراسة التاريخ المملوكي، إذ انه أرخ لحكم ثلاثة من

السلاطين الذين عاصرهم، وهم كل من الظاهر بيبرس، والمنصور قلاوون، والاشرف خليل بن قلاوون، وهي:

١ – الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر.

٢ – تشريف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور.

٣ – الالطاف الخفية وهو في سيرة الاشرف خليل بن قلاوون.

٤ – الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة.

٥ – تمائم الحمائم وهو في مراسلات حمام البريد.

ثامنًا: أقوال العلماء فيه: اشادَ العديد من العلماء بأبن عبد الظاهر لعلمه الواسع وخصاله الحميدة؛ إذ اتصف بالأمانة والمرؤة، وشهد له بذلك كل من ترجم لهُ، ومنهم:

١–الكتبي (1973، مج2، ص179) فيقول عنه: (الكاتب الناظم الناثر، شيخ أهل الترسل، ومن سلك طريق الفاضلية في انشائه...كان بارع الكتابة [له] في قلم الرقاع طريقة غريبة حلوة وكان ذا مروءة وعصبية).

٢– اما ابن كثير (ابن كثير، 2015، ج15، ص572) يذكر تفوقه في الانشاء يقول: (هو كاتب الانشاء بالديار المصرية، وآخر من برز في هذا الفن على أهل زمانه، وسبق سائر اقرانه).

٣– أثنى عليه ابن حبيب (1976، ج1، ص164) بأنه: (كان جليل القدر كبير المحل، حسن الكتابة، غزير الفضل، جميل السيرة، اوحد عصره في الإنشاء، يضرب به المثل، وشهرته بالرئاسة والآداب والتقدم عند الملوك).

٤– يقول ابن الفرات (1939، مج8، ص162) عن محي الدين إنه كان: (متمكنًا من صناعة الإنشاء، وله فيها اليد الطولى وفضايله وشهرته بالآداب والرياسة تغني عن شرح بعض أحواله خصوصًا عن الكثير منه).

٥– يقول القلقشندي (1919، ج14، ص70) عن آل عبد الظاهر: (الذين هم بيت الفصاحة ورؤس أرباب البلاغة).

٦– امتدحه العيني (2010، ج3، ص196) قائلاً: (الكاتب الناظم الناثر، كاتب الإنشاء بالديار المصرية، وأحد من برز في هذا الفن على أهل زمانه، وسبق سائر أقرانه).

٧- يذكر ابن تغري بردي (1992، ج8، ص32) عنه: (انه كان من سادات الكتاب ورؤسائهم وفضلائهم...وهو صاحب النظم الرائق والنثر الفائق).

(المبحث الثانـي)

منذ مطلع القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي تعرض العالم الإسلامي إلى هجوم عنيف اتسم بالتخريب والتدمير من قبل المغول، إذ اجتاحت معظم مدن الإسلام دون احترام لعهود أو أمان، وسرعان ما اسقطوا عاصمة الخلافة العباسية في بغداد سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨م (أبو الفداء، 1907، ج3، ص194).

واصل المغول زحفهم تجاه بلاد الشام التي دانت معظم مدنه لهم بالاستسلام، إلا أن المسلمين تمكنوا من التصدي لتلك الجموع الوثنية على يد المماليك في مصر والشام، إذ حقق السلطان قطز[5]، (٦٥٧-٦٥٨ هـ/١٢٥٩ -١٢٦٠ م) انتصارًا حاسمًا في معركة عين جالوت[6]، سنة ٦٥٨ هـ/١٢٦٠م (ابن كثير، 2015، ج15، ص352-353؛ المقريزي، 1997، ج2، ص516-517)، فكان ذلك بداية الانكسار للمغول؛ إذ ارتدّوا إلى إيران واقاموا دولة لهم هناك اطلق عليها (الدولة الايلخانية) تحت قيادة هولاكو خان[7]، (الصياد،1987، ص27-30)، ومع اعتناق بعض قادتهم للإسلام مثل السلطان أحمد تكودار[8]، والذي اعتنق الدين الإسلامي في سن مبكرة من حياة والده هولاكو خان (ابن تغري بردي،1992، ج7، ص262؛ الحلبي،1996، ج1، ص619) وذلك بعد تعرفه على الإسلام على يد الشيخ كمال الدين عبد الرحمن الذي كان له تأثير كبير عليه وعلى عدد من أفراد أسرته، مما ترك ذلك الأمر أثرًا بالغًا في نفسه فقادته قناعته إلى اعتناق الإسلام في مطلع شبابه (ابن حبيب، 1976، ج1، ص72؛ ابن عبد الظاهر،1961، ص ص6،48).

أما لقب السلطان فإنه خوطب به من قبل السلطان قلاوون على اعتباره حاكمًا مسلمًا وكان ذلك ردًا على رسالة تكودار التي أرسلها إلى السلطان قلاوون سنة ٦٨١ هـ/١٢٨٣ م (ابن عبد الظاهر،1961، ص10)، وهنا بدأت مرحلة جديدة من العلاقات اتسمت بوجود محاولات للتقارب وعقد الصلح مع المماليك في عهد السلطان المنصور قلاوون؛ إذ لعبت التحولات العقائدية بعد اسلام تكودار في تخفيف حدة العداء، فبعد أن اعتلى تكودار عرش مغول فارس

سنة ٦٨١ -٦٨٣ هـ/١٢٨٢-١٢٨٤م سارع إلى مخاطبة أهل بغداد برسالة معلنًا فيها إسلامه ومبشرًا إياهم بأنه بات من أتباع الدين الإسلامي، وعزمه على الاعتناء بالمساجد والمدارس الموجودة في بغداد وتخصيص الأوقاف اللازمة لها من أجل الإنفاق عليها، كما أكد في رسالته بعد أن منَّ الله عليه بنعمة الإسلام فإنهُ عازمًا على تطبيق قواعده، وأختتم رسالته بطلب من أهل بغداد في نشر رسالته تلك بين الناس وإرسالها الى سائر الأقاليم والجهات حتى يعم الخير وتطمئن القلوب (ابن عبد الظاهر،1961، ص5؛ بيبرس الدوادار،1998،ج9، ص202-203؛ فهمي،1981، ص189؛ هلال، 1997، ص173).

كان غرض الرسالة التي بعثها أحمد تكودار إلى أهل بغداد هي إزالة آثار تلك الاعتداءات التي حدثت من قبل جده هولاكو خان عند استباحته لبغداد وقتل علمائها وفقهائها وتدمير مساجدها ومدارسها، ولأن قوة المغول ضعفت (المقريزي، 1997، ج1، ص ص 322، 351، 363، 365، 373، 386؛ ج6، ص ص 38-54، 97-101، 104-105)، فيقول بن عبد الظاهر: ((ولما جرى ذلك تحدثوا فيما بينهم في أن قدرتهم ضعفت، ورجالهم قتلت وأن المسلمين كلما راحوا، في قوة، وأنه لأجله في هذا الوقت أتم من إظهار الإسلام)) (ابن عبد الظاهر،1961، ص4).

حسب ما يذكر بن عبد الظاهر أن الذي دفع أحمد تكودار إلى إعلان إسلامه هو ليس لغرض التقرب إلى أهل بغداد من جهة، ومراسلة السلطان قلاوون من جهة أخرى، إنما هو مكرًا وخديعة حتى يأمن جانب المماليك من جهة، ويتفرغ لقتال أقاربه واخوته وأولاد أخيه آرغون من جهة أخرى (ابن عبد الظاهر،1961، ص48)، إلا أن بعض المصادر تذكر غير ذلك؛ إذ تمتدحه وأنه بذل قصارى جهده لأجل دخول قومه الإسلام، حتى أنه ربما قتل لذلك السبب (أبو الفداء، 1907، ج4، ص17؛ بيبرس الدوادار،1998،ج9، ص221).

بدأ السلطان أحمد تكودار يفكر في وضع حد لحالة الحرب المستمرة مع دولة المماليك في مصر والشام، وتماشيا مع السياسة الجديدة التي انتهجتها دولة مغول فارس، (الدولة الإيلخانية) في التقرب إلى المسلمين ارسل سفارة إلى مصر في شعبان سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م برئاسة قطب الدين محمود الشيرازي قاضي سيواس (ت ٧٧١ هه/١٣١١ م)، والأمير بهاء الدين اتابك السلطان مسعود صاحب الروم، والصاحب شمس الدين محمد بن الصاحب شرف الدين

وزير ماردين ((ومعهم جماعة كبيرة من أتباع واشياع وغلمان ومماليك وخواص وتجمل عظيم)) (أبو الفداء، 1907، ج4، ص16؛ ابن عبد الظاهر،1961، ص15)، ويبدوا أن هناك دافعًا سياسيًا وراء تلك السفارة، وهو إقامة علاقات الود مع السلاطين المماليك وتأمين جانبهم من جهة، وللتفرغ لمواجهة الخلافات الداخلية لاسيما خلافاته مع بن أخيه آرغون من جهة أخرى (ابن شافع، 1998، ص93؛ ابن عبد الظاهر،1961، ص48)، كما أن الضعف الذي بدأ ينتاب مغول فارس من جهة، وازدياد قوة المماليك من جهة ثانية كان دافعًا قويًا لتلك السفارة (ابن عبد الظاهر،1961، ص4).

تحركت السفارة من مقر السلطان أحمد تكودار قاصدة سلطنة المماليك، وعند وصول الخبر إلى السلطان المنصور قلاوون بوصولهم إلى البيرة[9]، أصدر أمرًا بتأمينها من قبل الأمير حسام الدين لاجين الرومي، والأمير سيف الدين كبك، وأكد السلطان قلاوون على الاحتراز على أعضاء تلك السفارة ((وأن أحدًا من خلق الله لا يراهم، ولا يجتمع بهم، ولا يتحدث إليهم بكلمة، ولا يسار بهم إلا في الليل)) (أبو الفداء، 1907، ج2، ص328؛ ابن عبد الظاهر،1961، ص6)، فساروا ليلاً حتى وصلوا إلى حلب ومن بعدها إلى دمشق ومنها إلى مصر، وادخلوا ليلاً إلى أن حضروا بين يدي السلطان قلاوون بقلعة الجبل[10]،في شهر رجب من العام نفسه ٦٨١هـ/١٢٨٢م (ابن الفوطي،2003، ص462؛ المقريزي، 1997، ج2، ص 157-158).

أدى الرسل الرسالة التي أرسلها السلطان أحمد تكودار إلى السلطان قلاوون، كما حادثوا السلطان شفاهة في أمر الصلح بين الدولتين واطفاء نار الفتن والحروب (ابن عبد الظاهر،1961، ص6)، ويبدو أن من الاسباب التي دفعت السلطان قلاوون إلى الاحتراز على رسل السفارة يعود إلى خوفه من تجسس بعض أعضائها على أحوال دولة المماليك لاسيما وأن المغول اشتهروا بذلك الأمر كثيرًا، فضلاً عن ما اتصف به المغول من المكر والدهاء واعتمادهم على الحيل وبث الفوضى وتفكيك المجتمعات التي ينوون السيطرة عليها، وكذلك خوفه من أن يسعى سفراء المغول إلى التواصل مع كبار قادة وامراء المماليك بهدف استمالتهم بالمال والمناصب لكسب ولائهم، وازدادت تلك المخاوف بعد فشل مغول فارس من اخضاع دولة المماليك لهم بالقوة (ابن الفوطي،2003، ص462؛ العيني، 2010، ج2، ص296)، وبنفس طريقة حضور السفارة الايلخانية إلى دولة المماليك، تم تسفيرهم ليلاً أيضًا دون احتكاكهم بأحد

من الامراء المماليك إلا من جرد لإحضارهم من الامراء، وهم الأمير حسام الدين لاجين، والامير سيف الدين كبك، إذ خرجوا من مصر ليلة السبت ثاني أيام رمضان ثم وصلوا إلى حلب في سادس شهر شوال من عام ٦٨١هـ/١٢٨٢م، ومنها توجهوا إلى بلادهم (المقريزي، 1997، ج2، ص16).

كان السلطان أحمد تكودار مصرًا على إقامة السلام مع السلطان قلاوون ولم يفقد الأمل، لذا سعى مجددًا إلى تحقيق ذلك عبر إرسال سفارة أخرى إلى مصر في ذي الحجة من عام ٦٨٢هـ/١٢٨٣م، ترأسها الشيخ كمال الدين عبد الرحمن[11]، الذي بادر بأن يتولى بنفسه تلك السفارة إلى مصر، إذ ان الشيخ عبد الرحمن ((وافهم الملك احمد إنه يصلح له مولانا السلطان، وأعتقد أن أموره تتم عند مولانا السلطان كما تمت هناك، وأنه سيحضر فتكون له صورة في البلاد وعظمة وأسم، وتجتمع إليه الناس)) (ابن عبد الظاهر،1961، ص48)؛ إذ أن السلطان المنصور قلاوون هو الذي طلب حضور الشيخ عبد الرحمن، وقال للسفراء شفاهة: ((أنني لا أثق إلا بكلام الشيخ عبد الرحمن، لتديّنهُ وصدق حديثهُ عن الملك احمد آغا سلطان وعلى وزيره صاحب ماردين)) (ابن الفرات، 1939، مج8، ص249)، وضمّت السفارة أيضًا صمد آغا أحد كبار أمراء المغول، والصاحب شمس الدين محمد بن الصاحب شرف الدين التيتي، والوزير زين الدين صاحب ماردين وبصحبتهم مائة وخمسون رجلاً من المغول (ابن عبد الظاهر،1961، ص49؛ النويري، د.ت، ج31، ص66).

كان الشيخ عبد الرحمن صاحب نفوذ واسع في بلاد مغول فارس؛ إذ تولى الإشراف على الأوقاف في مختلف أنحاء البلاد، وتمتع بسطوة كبيرة حتى بلغت مكانته حدًا جعل أحمد تكودار وعشيرته يقف بين يديه مستمعًا لنصائحه ومطيعًا له، كما اطاعه الجميع (ابن عبد الظاهر،1961، ص48–49؛ ابن الفوطي،2003، ص 298؛ النويري، د.ت، ج31، ص68)، ونظرًا للمكانة الرفيعة التي كان يتمتع بها في دولة مغول فارس كان يعامل معاملة الملوك؛ إذ كان يركب وعلى راسه الجتر[12]، ويحيط به السلحدارية[13]، والجمدارية[14]،وأنه يزور دولة المماليك بتلك الهيئة لذا تتبع السلطان قلاوون تلك السفارة عن كثب، يقول بن عبد الظاهر: ((صارت أخباره تصل إلى مولانا السلطان منزلة فمنزلة، ومرحلة فمرحلة)) (ابن عبد الظاهر،1961، ص49).

أصدر السلطان قلاوون أوامره بمنع إقامة المواكب الفخمة التي كانت ترافق الشيخ عبد الرحمن داخل اراضي دولة المماليك حتى تحافظ الدولة على هيبتها (ابن شافع، 1998، ص114)، وركب الأمير جمال الدين اقوش لتلقي الشيخ عبد الرحمن واعضاء سفارته، وعزل الأمير جمال الدين اقوش رؤساء السفارة عن باقي الأعضاء، كما منع تلك الجموع من إثارة اي ضجيج أو فوضى، وحرص على إخفاء وصول السفارة عن سكان بلاد الشام رغم العدد الكبير الذي كانت تضمه تنفيذًا لأوامر السلطان قلاوون، وبمجرد وصولهم قادهم مباشرة إلى قلعة حلب عبر البيرة دون أن يشعر بهم أحد، إذ ساروا ليلاً حين كان الناس نياما، واتخذوا طرقًا نائية غير مأهولة بالسكان ولا يمر بها أحد (ابن عبد الظاهر،1961، ص49؛ العيني، 2010، ج2، ص297)، ثم توجهوا نحو دمشق بعد أن استقروا في قلعة حلب وقضوا فيها عدة اشهر، وتولى الامير جمال الدين أقوش مرافقتهم ليلاً سالكًا بهم طرقًا خالية من المارة والسكان حتى وصلوا قلعة دمشق في ١٢ ذي الحجة عام ٦٨٢هـ/١٢٨٤م وهناك نزلوا في قاعة دار الرضوان، وأكرم وفادتهم بما لزم من النفقات وقدّم لهم الطعام والشراب بوفرة، وتم الاهتمام والاعتناء بخيولهم وما اصطحبوه معهم من دواب وآلات (ابن عبد الظاهر،1961، ص50؛ العيني، 2010، ج2، ص296).

تكرر الموقف الذي جرى في قلعة حلب ذاته في قلعة دمشق؛ اذ تم فصل رؤساء السفارة وحاشيتهم فأقام كل فريق منهم في موضع مستقل داخل القلعة، ويقول ابن عبد الظاهر: (وضعوا في أماكن محفوظة) وصدرت أوامر صارمة بعدم الاتصال بهم أو الحديث معهم وعدم الإصغاء إلى ما يقولونه أو الرد عليهم (ابن عبد الظاهر،1961، ص50)، ونظرًا لانشغال السلطان قلاوون في القاهرة تأجل اللقاء بالسفارة إلى العام التالي أي العام ٦٨٣هـ/١٢٨٤م، إذ توجه السلطان قلاوون إلى دمشق لمقابلة السفارة في جمادى الآخرة من ذلك العام (ابن الفرات، 1939، مج8، ص6؛ المقريزي، 1997، ج2، ص184).

أولى السلطان قلاوون اهتمامًا بالغا بتلك السفارة لتكون رسالة معبرّة عن مكانة دولة المماليك وهيبتها السياسية، لاسيما وأن السلطان المنصور قلاوون علم بقتل السلطان أحمد تكودار وتولي ابن أخيه آرغون بن آباقا خان بن هولاكو الحكم بدلاً منه دون علم الشيخ عبد الرحمن واعضاء سفارته بذلك (ابن عبد الظاهر،1961، ص68)، لذا جلس السلطان المنصور

قلاوون على عرشه بأحسن ما يرى من هيئة وصورة تدهش كل ذي بصر، وتزين خاصته من المماليك بأفخر ما يكون من الثياب (ابن الفرات، 1939، مج8، ص6؛ النويري، د.ت، ج31، ص67)، أما الشيخ عبد الرحمن فدخل في هيئة أهل الزهد ((معمما بفوطة مرخاة لها عذبة بدلق حوى كميه وجمجم))(ابن شافع،1998، ص115)، ويبدو أن الشيخ عبد الرحمن كان يظن أن ارتداءه تلك الملابس البسيطة والهيئة الزاهدة يوهم السلطان وحاشيته بامتلاكه كرامات وروحانية (يستخف عقولاً مثل تلك العقول) (ابن عبد الظاهر،1961، ص69)، فيقول ابن عبد الظاهر ((فرسم له بتقبيل الأرض، فأبى كبرًا منه وزهوًا، فأهوي به إلى الأرض حتى كادت أعضاءه تتفسخ عضوًا فعضوًا...وكذلك فعل بصمد آغا وشمس الدين بن الصاحب)) (ابن عبد الظاهر،1961، ص69).

رحب السلطان المنصور قلاوون بالشيخ عبد الرحمن ترحيبًا كبيرًا وأجلسه ورفيقيه صمد آغا وشمس الدين بن الصاحب وسمح لهم بالحديث، وتم تقديم الهدايا للسلطان قلاوون المرسلة من قبل السلطان أحمد تكودار وأخرى من الشيخ عبد الرحمن (ابن شافع، 1998، ص116؛ العيني، 2010، ج2، ص297)، ثم قدّم الشيخ عبد الرحمن للسلطان الرسالة التي حملها من السلطان أحمد تكودار الذي بيّن في تلك الرسالة تمسكه بتعاليم الإسلام وما يدعوا إليه من مكارم الأخلاق، ولاسيما الدعوة إلى السلام والطمأنينة بين الناس وخصوصًا بين أبناء الأمة الإسلامية، كما أشار إلى أن مملكة جنكيز خان كادت أن تفقد مجدها وقوتها نتيجة الخلافات والنزاعات المستمرة التي نشبت بينها وبين جيرانها، لذا أراد السلطان أحمد تكودار أن يبدّل ذلك الصراع إلى الوئام والتفاهم ومحو الاحقاد وارساء دعائم السلام، وأن النزاع القديم انتهى ولم يعد له مكان، لذلك أرسل رسله سعيًا لتحقيق السلام واخماد الفتن وانهاء الخلافات حفاظًا على دماء المسلمين ووحدتهم (ابن عبد الظاهر،1961، ص69-71)، وأوضح في رسالته أن إرساله سفارة الشيخ عبد الرحمن هو تلبية لطلب السلطان المنصور قلاوون على الرغم من إنه كان يعي مكانة الشيخ الرفيعة ودوره الكبير في تقديم الاستشارات والاعتماد عليه في كل ما يتعلق بالشؤون العامة، إذ وصفه: ((هو لنا في أمور الدين نعم العون...والناصح الذي لا ينطق عن الهوى)) (ابن عبد الظاهر،1961، ص69-71)، وهي تعكس الثقة التي يكنها تكودار للشيخ عبد الرحمن، وحوت الرسالة ايضًا على تحذير من أحمد تكودار للسلطان المنصور قلاوون من الانصياع وراء من

وصفهم بأهل الشقاق الذين يسعون إلى أحداث الفرقة بين الدولتين ومنع تحقيق السلام، وتوخي الحذر والحكمة في عدم اتخاذ قرارات يمكن أن تؤدي إلى الأضرار بعلاقات الصداقة بين البلدين، وفي الختام أكد تكودار على ضرورة عدم إتخاذ السلطان قلاوون قرارا يتعارض مع نصيحته معبرًا عن رغبته في كسب ود السلطان وتحقيق سلام دائم بين الطرفين من أجل تعزيز التفاهم والتعاون (ابن عبد الظاهر،1961، ص69-71).

كان هناك أكثر من لقاء بين السلطان المنصور قلاوون والشيخ عبد الرحمن حتى تم أخباره في اللقاء الثالث بمقتل احمد تكودار وتولي أرغون بن أباقا خان[15]، عرش مغول فارس (ابن تغري بردي، 1992، ج7، ص306؛ ابن الفرات، 1939، مج8، ص6؛ بيبرس الدوادار،1993، ص84) مما كان له وقع سيء على اسماع اعضاء السفارة لاسيما الشيخ عبد الرحمن؛ وذلك لزوال سلطانه عقب مقتل تكودار، فلم يحتمل الأمر لاسيما اعقبها أن اوخذ ما معهم من المجوهرات والاموال وتبع ذلك اعتقالهم فمات في شهر رمضان من عام ٦٨٣هـ/١٢٨٤م، فاصدر السلطان قلاوون أوامره بدفنه في مقابر الصوفية بدمشق (ابن الفرات، 1939، مج8، ص6؛ النويري، د.ت، ج31، ص67)، بينما استمر باقي اعضاء السفارة في الاعتقال إلى أن أطلق سراحهم وعادوا إلى بلادهم (ابن شافع، 1998، ص117؛ المقريزي، 1997، ج2، ص184) باستثناء الأمير شمس الدين محمد بن الصاحب الذي نقل إلى قلعة الجبل بمصر وظلَّ معتقلاً بها مدة إلى أن أفرج عنه، إذ تولى بعد ذلك نيابة دار العدل بالديار المصرية (ابن الفرات، 1939، مج8، ص7؛ النويري، د.ت، ج31، ص68)، وبعد ثلاثة أيام قضاها السلطان المنصور قلاوون في دمشق لمقابلة السفارة عاد إلى الديار المصرية بعد أن لم تحقق تلك السفارة النجاح المرجو منها (العيني، 2010، ج2، ص322؛ المقريزي، 1997، ج2، ص184).

الخـــاتمـة:

توصَّلت الدراسة إلى جملة من النتائج، أبرزها:

1. شهدت العلاقات بين الدولة الإيلخانية ودولة المماليك تحولاً ملموسًا بعد اعتناق أحمد تكودار للإسلام، وسعيه إلى إرسال سفارات الصلح، ومحاولة إرساء السلام مع دولة المماليك بعد حقبة طويلة من العداء والصراع العسكري بين الدولتين.
2. لم يُبدِ السلطان قلاوون الثقة التامة في نوايا مغول فارس رغم تغير سياساتهم المعلنة؛ إذ أدى ذلك التوجس إلى اتخاذ إجراءات احترازية صارمة من قِبل المماليك تمثَّلت في تقييد تحركات الرسل ليلاً، والحد من تنقلاتهم في الأراضي المملوكية؛ بغية منعهم من جمع المعلومات عن أحوال الدولة، أو إقامة علاقات مشبوهة مع أمرائها.
3. أظهر السلطان قلاوون قوة السلطنة المملوكية وهيبتها أمام السفراء مبينًا مدى استقرارها وقدرتها العسكرية والسياسية على مواجهة أي متغيرات.
4. أوضحت السفارة استعداد السلطان أحمد تكودار للإنفاق على المساجد والمدارس، وإظهار كل ما له صلة بالشعائر الإسلامية لكسب شرعية دينية وبناء جسور الثقة.
5. أخفقت السفارات في تحقيق أهدافها النهائية في تثبيت دعائم السلام بين الدولتين؛ نتيجة لمقتل السلطان أحمد تكودار، وتغير نظام الحكم الإيلخاني وعودته لسياساته السابقة.

الهـوامــش

(1) **ديـوان الانشـاء:** هو الديوان المختص بالرسائل التي تصدر عن السلطان، وكان على كاتب الانشاء أن يتحلى بمجموعة من الصفات اللازمة له مثل صباحة الوجه، وفصاحة اللفظ، وطلاقة اللسان، وإثارة الجد على الهزل، وتوقد الفهم، وحسن الاصغاء، وكتمان السر، وتوقد الفهم، وعلى المرشح للعمل في ذلك الديوان أن يكون من اقطاب النثر والبلاغة والمعارف الواسعة التي تؤهلهم بالوقوف على شؤون الحكم والسياسة الداخلية والخارجية والعلاقات السياسية بين مصر وباقي الامم، ويسمى الديوان أيضًا بـ (ديوان المكاتبات) (القلقشندي، 1919، ج1، ص ص 8،124).

2() **الظـاهر بيبـرس:** الظاهر ركن الدين أبو الفتح بيبرس الصالحي النجمي البندقداري، ولد بحدود العشرين والستمائة بصحراء القفجاق، أخذ من بلاده صغيرًا وبيع بدمشق للأمير علاء الدين ايديكين البندقداري، ثم أخذه الملك الصالح واعتقه وقدمه على طائفة من الجمدارية واستمر على ذلك إلى أن مات الملك الصالح، بعدها استولى على السلطة بعد قتله قطز عام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م، كان ملكًا شجاعًا فتح قيسارية وآرسوف ويافا وغيرها، عمَّر الحصون والجسور وأقام الخلافة بمصر وجعل لكل مذهب قاضٍ، توفي عام ٦٧٦هـ/١٢٧٧م (ابن تغري بردي، 1984، ج3، ص447؛ ابن كثير، 2015، ج15، ص454).

3() **المنصور قلاوون:** الملك المنصور قلاوون بن عبد الله التركي الصالحي الألفي، اشتراه الملك الصالح نجم الدين أيوب بألف دينار وكان من أكابر الأمراء عنده، استقل بالسلطنة سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م، فتح حصن

المرقب وطرابلس وكفر التتار في موقعة حمص، توفي عام٦٨٩هـ/١٢٩٠م ودفن بمدرسته التي انشأها بين القصـرين بالقـاهرة، كـان حسـن الصـورة، عليـه ابهـة السـلطة ومهابـة الملـك (ابـن كثيـر، 2015، ج15، ص٥٣٩).

4() **الاشرف خليل:** السلطان الملك الاشرف صلاح الدين بن السلطان الملك المنصور قلاوون الصالحي، جلس على تخت الملك سنة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م واستفتح الملك بالجهاد، فتح عكا وقلعة الروم وفي السنة الثالثة من حكمه جاءته مفاتيح قلعة بهنسا دون قتال، كان شجاعًا مقدامًا عالي الهمة، قتل على يد نائب السلطنة بيدرا سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٣م ودفن في القاهرة (ابن العماد الحنبلي،1991، ج7، ص737؛ النويري، د.ت، ج31، ص172).

5() **قطز:** الملك المظفر سيف الدين قطز بن عبد الله المعزي، ثالث سلطان من سلاطين الدولة المملوكية، تولى السلطنة سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٩م، استطاع ايقاف زحف التتار في معركة عين جالوت ولاحق فلولهم حتى حرر الشام منهم، قتل سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م (اليونيني،1955، ج2، ص280).

6() **عين جالوت:** بلدة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين، استولى عليها الصليبيين مدة ثم استردها منهم صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م (ياقوت الحموي،1977، ج4، ص177).

7() **هولاكو:** هولاكو بن تولوي بن جنكيز خان احد كبار قادة المغول ومؤسس الدولة الايلخانية في ايران والعراق، أتخذ من مراغة في تبريز مقرًا لحكمه، أنهى الخلافة العباسية سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، توفي سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٥م (ابن كثير، 2015، ج15، ص404؛ العيني، 2010، ج1، ص413-416).

8() **أحمد تكودار:** هو الابن السابع لهولاكو خان، والدته قوتوي، تسلم الحكم بعد وفاة شقيقه أباقا سنة ٦٨٠هـ/١٢٨٢م وأظهر دين الإسلام وتسمى بأحمد، قتل على يد أخيه آرغون سنة ٦٨٣هـ/١٢٨٤م (أبو الفداء، 1907، ج4، ص16؛ ابن الفوطي،2003، ص290-301).

9() **البيرة :** بلدة بين حلب والثغور الرومية قرب سميساط وهي قلعة حصينة (ياقوت الحموي،1977، ج1، ص526).

10() **قلعة الجبل:** تعد واحدة من أهم القلاع التاريخية في مصر، شيدت بأمر من صلاح الدين سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م؛ وذلك لتأمين القاهرة من هجمات الاعداء إلا أنه لم يتمها في حياته بل اتمها السلطان الكامل بن العادل عام ٦٠٤هـ/١٢٠٧م فكان أول من سكنها واتخذها دارًا للملك (المقريزي، 1997، ج3، ص40-41).

11() **الشيخ عبد الرحمن:** هو رسول أحمد اغا ملك التتار توفي سنة ٦٨٣هه/١٢٨٤م بقلعة دمشق ودفن بمقابر الصوفية (ابن الفرات،1939، مج8، ص13).

12() **الجتر:** مظلة أو قبة من الحرير الأصفر مزركشة بالذهب في اعلاها طائر من فضة مطلية بالذهب تحمل على رأس السلطان (دهمان،1990، ص51).

13() السلحدارية: هو الذي يحمل سلاح السلطان أو الأمير، ويتولى أمر السلاح خانة وما يتبعه وهو ممسك السلاح (دهمان،1990، ص91).

14() الجمدارية: فئة من المماليك السلطانية المكلفين بإلباس السلطان أو الأمير ثيابه (دهمان،1990، ص54).

15() **أرغون بن أباقا خان:** آرغون بن آباقا بن هولاكو خان، وهو الابن الأكبر لآباقا، جلس على تخت الحكم سنة ٦٨٣هـ/١٢٨٥م بعد مقتل عمه أحمد تكودار، ويقال إنه قتل مسمومًا من قبل اليهود، لذلك انهال المغول على اليهود قتلاً والباقي نهبًا (رشيد الدين، د.ت، مج2، ص124).

قائمة المصادر والمراجع:

1. ابن العماد الحنبلي، عبد الحي أحمد بن محمد العسكري (ت١٠٨٩هـ/١٦٧٨م)، شذرات الذهب في اخبار من ذهب، حققه وعلق عليه: محمود الارناؤوط، أشرف على تحقيقه وخرج احاديثه: عبد القادر الارناؤوط، ط١(بيروت: دار أبن كثير،١٤١٢هـ/١٩٩١م).
2. ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت٨٠٧هـ/١٤٩٥م)، تاريخ الدول والملوك، المعروف بتاريخ أبن الفرات، ت: قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين (بيروت: المطبعة الأمريكانية، ١٩٣٩م).
3. ابن الفوطي كمال الدين أبي الفضل عبد الرزاق الشيباني البغدادي (ت٧٢٣هـ/١٣٢٣م)، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، تح: مهدي النجم، ط١(بيروت: دار الكتب العلمية، ١٥٢٤هـ/٢٠٠٣م).
4. ابن تغري بردي، أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن عبد الله (٨٧٤هـ/١٤٦٩م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ،قدم له وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٢م).
5. ابن حبيب، الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر(ت٧٧٩هـ/١٣٩٦م)، تذكرة النبيه في ايام المنصور وبنيه، تح: محمد محمد امين، راجعه وقدم له: سعيد عبد الفتاح عاشور (القاهرة: دار الكتب،١٩٧٦م).
6. ابن شافع، شافع بن علي الكاتب العسقلاني المصري (ت٧٣٠هـ /١٣٢٩م)، الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور، تح: عمر بن عبد السلام تدمري، ط١(بيروت: المكتبة العصرية، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م).
7. ابن عبد الظاهر، محي الدين بن عبد الظاهر (ت ٦٩٢هـ/١٢٩٣م)، تشريف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور، تح: مراد كامل، راجعه: محمد علي النجار(القاهرة: الشركة العربية للطباعة والنشر،١٩٦١م).

8. ابن كثير، أبي الفداء إسماعيل (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م)، البداية والنهاية، حققه وخرج احاديثه وعلق عليه: رياض عبد الحميد مراد ومحمد حسان عبيد، راجعه: عبد القادر الارناؤوط وبشار عواد معروف (بيروت: دار أبن كثير،١٤٣٦هـ/٢٠١٥م).
9. أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل (ت٧٣٢هـ/١٣٣١م)، المختصر في اخبار البشر، ط١(القاهرة: المطبعة الحسينية، ١٣٢٥هـ).
10. بيبرس الدوادار، ركن الدين بن عبد الله المنصوري (ت ٧٢٥هـ/١٣٢٤م)، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تح : دونالد ريتشارد، ط١ (بيروت: الشركة المتحدة للتوزيع، ١٩٩٨م).
11. _____، مختار الاخبار، تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢هـ، حققه ووضع فهارسه: عبد الحميد صالح حمدان، ط١ (بيروت: الدار المصرية اللبنانية، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م).
12. الحلبي، سبط بن العجمي (ت٨٨٤هـ/ ١٤٧٩م)، كنوز الذهب في تاريخ حلب، تح: شوقي شغت وفالح البكور، ط١ (حلب: دار العلم العربي،١٤١٧هـ/١٩٩٦م).
13. دهمان، محمد أحمد، معجم الالفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ط١،(دمشق: دار الفكر، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م).
14. الصياد، فوأد عبد المعطي، الشرق الاسلامي في عهد الايلخانيين (الدوحة: مركز الوثائق والدراسات،١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).
15. ضيف، شوقي، عصر الدول والإمارات، ط٢ (القاهرة: دار المعارف،١٩٩٠م).
16. العيني محمود بن أحمد بن موسى بن محمود بدر الدين العينتابي(ت٨٥٥هـ/١٤٥١م) عقد الجمان في تاريخ اهل الزمان، حققه ووضع حواشيه: محمد محمد أمين (القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية،١٤٣١هـ/٢٠١٠م).
17. فهمي، عبد السلام عبد العزيز، تاريخ الدولة المغولية في إيران (القاهرة: دار المعارف،،١٩٨١م).
18. القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي (ت٨٢١ هـ/١٤١٨م)، صبح الاعشى في صناعة الانشا (القاهرة: المطبعة الاميرية، ١٣٣٨هـ/١٩١٩م).
19. الكتبي، محمد بن شاكر (ت٧٦٤هـ/١٣٧٢م)، فوات الوفيات والذيل عليها، تح: إحسان عباس (بيروت: دار صادر، ١٩٧٣م).

20. المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، تح: محمد زينهم ومديحة الشرقاوي، راجعه وضبط هوامشه: أحمد زيادة، ط١(القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٨م).
21. _____، تقي الدين أحمد بن علي أبو العباس الحسيني (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م)، السلوك لمعرفة دول الملوك، تح: محمد عبد القادر عطا، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م).
22. النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت٧٣٣هـ/١٣٣٢م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، تح: نجيب مصطفى فواز وحكمت كشلي فواز (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت).
23. هلال، عادل إسماعيل محمد، العلاقات بين المغول وأوروبا واثرها على العالم الإسلامي، ط١(القاهرة: عين للدراسات والبحوث الإنسانية،١٩٩٧م).
24. الهمداني، رشيد الدين فضل الله ابن عماد الدولة أبو الخير(ت٧١٨هـ/١٣١٨م)، جامع التواريخ، ترجمة: محمد صادق نشأت وآخرون، راجعه وقدم له: يحيى الخشاب (القاهرة: دار أحياء الكتب، د.ت).
25. ياقوت الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله الرومي البغدادي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، معجم البلدان، (بيروت: دار صادر، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م).
26. اليونيني، قطب الدين أبي الفتح موسى بن محمد بن أحمد (ت٧٢٦هـ/١٣٢٦م)، ذيل مرآة الزمان، ط١ (حيدر آباد، دائرة المعارف العثمانية، ١٩٥٥م).